دار الشروق
صلاح عبد الصبور
حي بن يقظان
لابن طفيل
رسوم : مصطفى حسين



صلاح عبد الصبور

حي بن يقظان

لابن طفيل

رسوم: مصطفى حسين

دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: [illegible] - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

١

لمْ يَكُنِ الناسُ في ذلكَ الزَّمانِ البعيدِ يعرفونَ أَباً أو أُمّاً لحيّ بن يقظان ، فكانوا يظنّون أن حيّ بن يقظان قد وُلد من غيرِ أمٍّ أو أبٍ ،

ثُمَّ تحتارُ ظنونُهم ويتساءلون : كيف كان ذلك ؟

يقول أَحَدُهم :

لا بدَّ أنه نشأ في جزيرةٍ من جُزُر الهند ؛ هذه الجزيرةُ التي ينبتُ فيها نوعٌ من الأشجارِ يُثْمر أطفالاً ، ومن هؤلاءِ الأطفالِ مَنْ هم ذُكورٌ ومَنْ هم إناث .

ويجيبه آخرُ هازئاً :

كيف تقول ذلك ، وأنت تعلم أنّ الله قد خَلَقَنَا جميعاً من ذُرِّيةِ أبينا آدم .. وقد خلق أبانا آدم من تراب ... وهل تصدِّق الخرافات التي تُحْكَى عن هذا الشجر الذي يثمر بَشَراً . ؟!

ويقول ثالث :

فماذا تقولان إذن في ميلادِ حيّ بن يقظان ، وقد رأيناه وحده على جزيرةٍ مهجورةٍ ليس فيها سِواهُ ، ولم يعشْ عليها قَبْله إنسان ؟

ويقصد الحائرونَ إلى أحد العلماء ، ويسألونه ، فينظر طويلاً في كتبه ، ثمّ يقول :

ربّما كان ٱلتقاءُ الحرارةِ والرطوبةِ في هذا المكان البعيد ، قد جعل قطعةً من الطِّينِ تنضجُ حتى تصبحَ طفلاً .

ويستوقفه عالم آخر كان حاضراً الحديث ليقول :

إنَّ الطينَ عندما ينضجُ بالحرارةِ والرطوبةِ قد يتحوّل إلى تمثالٍ ، ولكنّه لا يتحوّل إلى آدميّ !

ويشتدّ بعدئذٍ الخلافُ ، ويتساءلُ الناسُ : كيف جاءَ حيّ بن يقظان إلى الوجود ؟



٢

كانت هناكَ جزيرةٌ من الجزر يحكمها ملكٌ ظالمٌ ، وكان هذا الملك عقيماً لا يُنْجب أولاداً .

وكان للملكِ أختٌ جميلةٌ تزوَّجتْ من رجلٍ من أهل الجزيرة اسمه يقظان ، وولدت ولداً ، فخافت من الملك على ولدها ، فقد كان هذا الملكُ ينتظر ميلادَ أوّلِ صبيٍّ من أسرته حتى يقتله .


كان الملك يخشى أن يكبرَ هذا الصبيُّ ، فيجتمع حوله الناسُ ، ويخلعوا الملكَ الظالمَ .

وخَافتِ الأمُّ على وَلدها ، فَوَضَعَتْهُ في صندوقٍ بعد أن أرضعته حتى شَبع ، ثم تركتهُ على ساحلِ البحرِ ليأخُذَهُ المدُّ إلى الجزيرة الأخرى ، وَوَدَّعته وهي تبكي ، وتقول :

يا ربّ ... لقد خلقتَ هذا الطفلَ ، ورزقته في ظُلُماتِ بطني ، ورعيتَهُ حتى خرجَ إلى النُّور ، وأنا أُسلّمه الآن إلى لطفك وكرمك .

وحملَ المدُّ الصندوقَ حتى رَسَا به على شاطئ الجزيرةِ الأخرى ، واستراحَ الصندوقُ بين الشَّجر الملتفِّ على الشاطئ ؛ فلما اشتدَّ جُوعُ الطفلِ بَـكَى ، فلم يجبه أَحَد ؛ واشتدَّ بكاؤه ، فسمعتْهُ ظَبْيَةٌ كانت قد فَقَدَتْ وَليدها الذي خطفه النّسرُ حين خرجَ من الشجر الملتفِّ .





٣

ظَنَّتِ الظَبْيَةُ أنّ الصوتَ الباكي هو صوتُ وَليدها ، فتتبعته حتى وصلتْ إلى الصندوقِ ، فَحَنَتْ على الطفلِ ، وسَقَتْهُ لبَناً سائغاً لذيذاً ، وأخذتْ تَتَعَهَّدُه وَتدْفعُ عنه الأَذى . وكانتِ الجزيرةُ التي عاشَ عليها حيّ وأُمه الظبية جزيرةً كثيرةَ الخَيراتِ ، وافرةَ الثَّمرَات ، خاليةً من الحَشَرات السامّةِ أو الوحوشِ المفترسة .

وحينَ أتمَّ حيٌّ عامَيْنِ من عمره ، حاولَ المشْيَ ، فاستقامَ جِسْمُهُ ، ثم نبتتْ أسنانُه ، فكان يخطو خَلفَ الظبيةِ ، ويأكل من الشجر المثْمر .

أما صَوْتُه ، فقد كانَ يقلد به صوتَ أمِّه الظبية ، وصوتَ الحيواناتِ الأخرى الأليفةِ التي يراها على الجزيرة .

ولما كانَ التفكيرُ هبةَ اللهِ سبحانه وتعالى للإنسان ، فقد بدأ حيٌّ يفكّر في كلِّ ما يراه حين بلغَ السابعةَ أو الثامنة من عمره .

نظر حيٌّ إلى الحيوانات حوله ، فرآها مَكْسُوَّةَ الجسمِ ، إمّا بالوَبر أو الشَّعْر أو الرِّيش ، وكان هو عارياً .

ونظر مرةً ثانيةً ، فرأى كلَّ الحيواناتِ تملكُ أسلحةً تُدافعُ بها عن نَفْسها . فمنها ما له قَرْنانِ طويلانِ ، ومنها ما له نَابَانِ بارزان ، ومنها ما له حَوَافِرُ أو أشواكٌ أو مَخَالب ، وكان هو بلا سلاح .

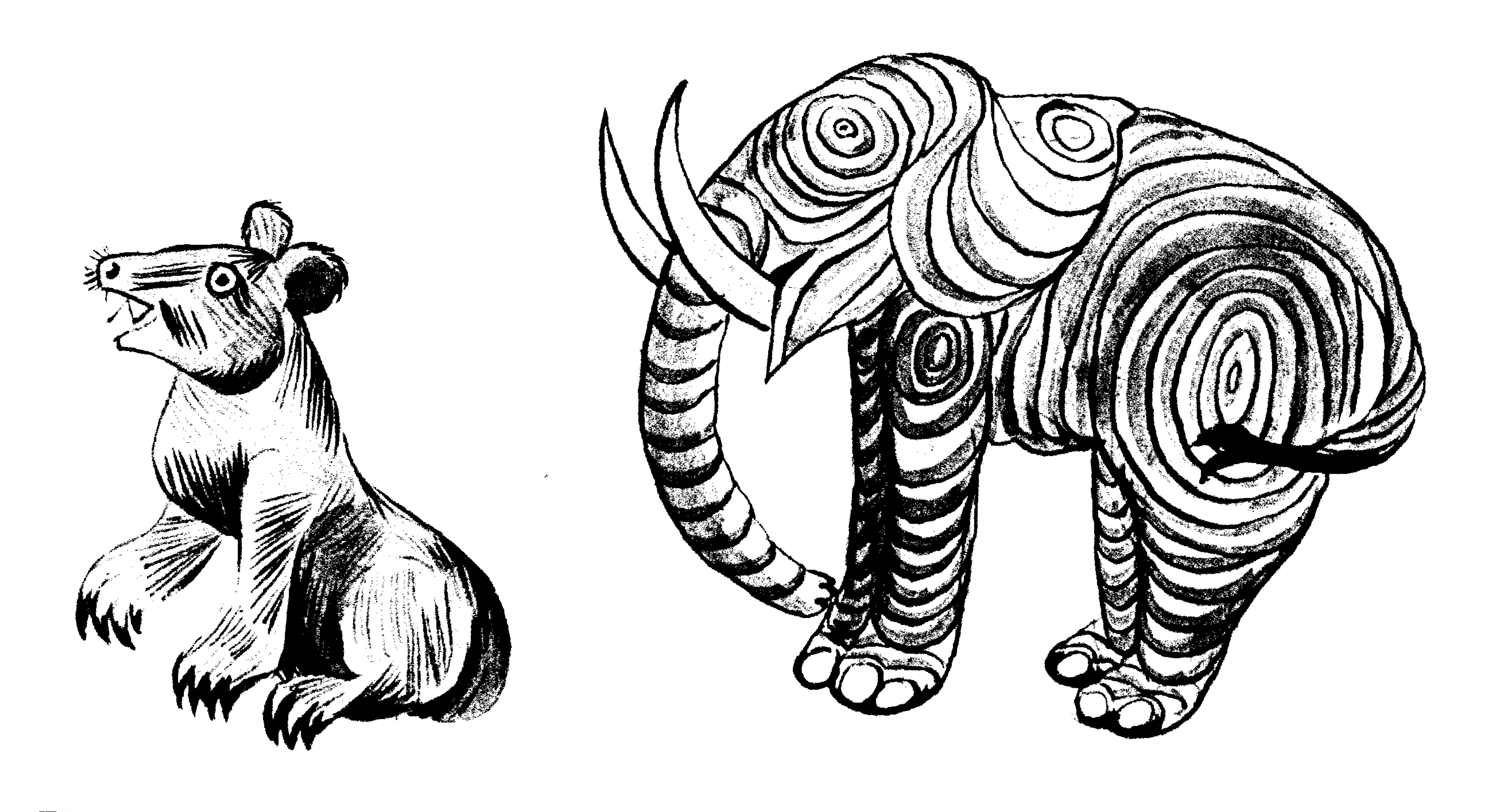
وقطع حيٌّ بعضَ أوراقِ الشَّجرِ العريضةِ ، وجعل بعضاً منها أمامه ، وبعضاً خَلْفَه ، ثم حَزَمَ هذه الأوراقَ بحزامٍ من الخُوص . ولكنَّ هذا الورقَ ذبلَ بسرعةٍ ، فأخذ

يُغيره بورقٍ جديدٍ ، ثم وجدَ أنه لو جَفّفَهُ وضَفّره شَرَائحَ لكانَ عُمْرُه أطولَ ؛ ففعل ذلك .

وكانت هذه الأوراقُ هي ملابسَ حيٍّ التي تكسوه ، وتحميه من الحَرِّ والبرد .

وقَطعَ حيٌّ أيضاً غُصْناً من أغصانِ الشَّجر ، واتَّخَذَه عصاً . وكانت عَصَاهُ الأُولى خشنةً مُعْوَجَّةً ، فأخذ يسوِّيها ، فانكسرتْ بين يديه ، فاختار غصناً آخرَ أشدَّ صلابةً ، حتى صنع عصاً قويةً .

بيديه وَحْدَهما صنعَ حيٌّ كلَّ ذلك ، فعرف عندئذٍ أنّ يَدَيْه أكثرُ فائدةً له من أظلافِ الحيواناتِ وحَوَافرها وأنْيابِها .



٤

أَصْبَحتِ الظبيةُ – أمُّ حيٍّ – عجوزاً بَطِيئةَ الحركةِ ، فكان حيٌّ يجمعُ لها العشبَ والثمرَ ، ويُطعمها بيديه .


وفجأةً ... كانتِ الظبيةُ تقفُ بجوار حيٍّ ، وهو يَحنُو عليها ، حين ٱرتعدتْ ارتعاداً عنيفاً ، ثم سَكَنَتْ حَرَكتُها ، وسقطتْ إلى الأرض .

وانزعجَ حيٌّ ، وأخذَ يُناديها بالصَّوت الذي كان يُناديها به ، ولكنّها لم تتحرك .

وظنَّ حيٌّ أنَّ شيئاً ما قد أصابَها ، فَأَوقفَ حركةَ أعضائها ؛ فتحسَّس جِسْمَها ، فإذا به سليمٌ كلُّه ... الأُذُنانِ ، والأَنفُ ، والصَّدر ، والظهر ، والقوائم الأماميةُ والخَلفية .

وعرف حيٌّ عندئذٍ أنَّ العُضْوَ المصَابُ عُضْوٌ لا تُمْكنُ رُؤْيتُهُ لأنه في وَسَطِ جِسْمها ؛

فجلس بجوارِها يائساً يبكي ليلةً ويوماً كامِلَيْنِ ، حتّى فاحتْ رائحةُ الجَسَدِ الميّتِ ، فَلمْ يَدْرِ ماذا يفعل ...



ونظر حيٌّ أمامَه فإذا بغُرابَينِ يتقاتلان ، حتى قَتَلَ أَحَـدُهما الآخرَ . وعندئذٍ أخَـذَ الغرابُ المُنْتَصِرُ يحفرُ بِمِنْقارِهِ في الأرضِ حتّى حَفَـرَ حفرةً تَتَّسِعُ للغرابِ القَتيلِ ، ثم أخذَ يَـدْفعُ جسمَ الغُرابِ القَتيلِ حتّى وَاراهُ في هذهِ الحفرة .

وفَهِمَ حيٌّ الدرسَ الذي ألقاه عليه الغرابُ ، فَـحَفَرَ لأمِّه الظَّبْيةِ حفرةً تَـتَّسعُ لها ، ثم أَوْدَعَها فيها .

لو رأيتَ .. حي .. بعد ذلك بِسَنَواتٍ قليلةٍ لرَأَيْتَ منظراً يُثيرُ تَعَجُّبكَ ، ولدهشتَ كيف عَرَفَ كلَّ هذهِ الأشياءِ التي عرفها دُونَ مُعَلِّم ، ولأَدْركتَ أنّ العقلَ أكبرُ هبةٍ وَهَبَها اللهُ للإنسان .

كنتَ سَتَرَى صَبِيّاً مكسوّاً بجلودِ الحَيَوَاناتِ التي عرف كيف يَصطادُها ، وقد بَنَى لنفسِهِ من جُذُوعِ الشَّجرِ كوخاً لِيَقِيَهُ الحرَّ والبردَ ، وأَلحَقَ به مخزناً صغيراً لغذائِهِ حتى لا يخرجَ للبحثِ عن الطعامِ عندَ كلِّ وَجبةٍ .

وكنتَ سَتَراهُ قَدِ استأنَسَ بعضَ الطُّيورِ ، وجعلَ مِنْ بَـيْضِها طعاماً له .

وكنتَ ستراهُ قَدِ استأنَسَ بعضَ الخُيُولِ الوَحْشيّةِ لكي يَـرْكَبَها ، ويمضيَ بها مسافات طويلةً باحثاً عن طعامه .

وكنتَ ستراهُ قد عرفَ النارَ ، وطهَا عليها طعامَهُ .



٥

فقد رأى حيٌّ ذاتَ مساءٍ كُومَةً من الأعشابِ والجُذُوعِ تحترق . وكان منظرُ النَّار جميلاً في وَسَطِ الظلامِ الدَّامس ؛

فاقتربَ منها ، وحاولَ لمْسَها ، فَلَسَعَتْهُ ، ولفَحَتْ وَجْهَهُ ، فَمَدَّ إليها غصنَ شجرةٍ ، فإذا به يشتعلُ ، وأخذ الغصنَ وكوَّم عليه بعضَ الأغصانِ الأخرى ، ووضع على الأغصانِ بعضَ ما اصْطادَ من حَيَواناتِ الجزيرة ، فإذا به يَجدُ أنّ اللحْمَ قد أصبحَ أطيَبَ طعْماً ، وأسهلَ في المضْغِ .

وأصبحت ليالي حيٍّ على الجزيرة طويلةً دافئةً . إذ كان آمناً في كوخه . وطعامُه في مخزنه ، وبدأ حيٌّ يفكّر في وَحْدَتِهِ ، وَيَتَأمَّلُ في أمورِ الكَوْنِ والكائنات :

رأى حَوْله نباتاً ، وحَيَوانات ، وطيوراً ...

والنباتُ يَتَغَذَّى ويَنْمُو مِثْلَ الحيواناتِ والطيور ، ولكنَّ الحيواناتِ تتحرّك ، والطيور تطيرُ وتُحلّق ...

ورأى حوله تِلالاً وأحجاراً وماءً .. أشياء لا تنمو ولا تَتَغَذَّى ، ولا تتحرك أو تطير ...




وٱهتدى ذِهْنُهُ إلى تقسيمِ الكائناتِ في ثلاثةِ أنواع ، وإنْ لم يُطلِقْ على كلٍّ نوعٍ منها اسماً
كالذي نعرفُهُ :

نوعٌ يتغذّى وينمو ويتحرَّك أو يطير ، وذلك هو الحيوان ؛

ونوعٌ يتغذّى وينمو ولكنّه لا يتحرّك أو يطير ، وذلك هو النّبات ؛

ونوعٌ جامدٌ ساكنٌ ، لا يتحرّك أو يتغذّى أو ينمو ، وذلك هو الجماد .

ورأى نفسه يختلف عن هؤلاءِ جميعاً .



٦

في ذاتِ ليلةٍ سألَ حيٌّ نَفْسَه : منْ أَوجدَ هذه الكائناتِ كلِّها .. ؟

إنّ هذه الكائناتِ كلَّها لا تستطيعُ أن تُوجدَ نَفْسها في هذه الحياةِ ، فهي كلُّها تعيشُ زمناً يطولُ أو يَقْصُرُ ، ثمّ تموتُ لِتَحُلَّ محلَّها كائناتٌ أخرى .

ولكنْ هناك أشياءُ يتكرّر ظُهورُها كلَّ ليلةٍ أو كلَّ صباحٍ ، مثل القمرِ والشمسِ والنجوم ،

ولكنّها أيضاً تختفي في وقتٍ معلوم ...

وفَطِنَ حيٌّ أنه لا بدَّ أنّ هناكَ مُوجِداً لهذا الكون ، قد رَتَّبهُ وأَحْسَنَ ترتيبَهُ .

إنّ كلَّ الكائناتِ يُصيبُها المرضُ والداءُ ؛ فالأشجارُ تَذْوي وتَتَساقَطُ ، والحيواناتُ تمرضُ وتموتُ ، والشمسُ يحجبُها السحابُ أحياناً ، والقمرُ يَصْغُر ويختفي . والنجومُ تَهْوي على هيئةِ شهبٍ محترقةٍ أو تغوصُ في الغيوم .

كلُّ هذه الكائناتِ ناقصةٌ ، فلا بدَّ أنّ خالقها هو الكامل ؛

وكلُّ هذه الكائناتِ متغيِّرةٌ ، فلا بُدَّ أنّ خالقَها هو الثابتُ الأَزَليّ .

لَقَدِ ٱهتدَى حيٌّ بعقله وَحْدَهُ إلى معنى قَوْلِ اللهِ تعالى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾ .

وحين أَتَمَّ حيٌّ خمسةً وثلاثينَ عاماً من عُمْره ، كانَ قد عرفَ اللهَ بِقَلْبِهِ ، فاشتغلَ بعبادةِ اللهِ بَدَلاً من أن يشتغلَ بمخلوقاته ، وانصرفَ إلى محبةِ اللهِ بعد أن ٱهتدى إلى الدينِ بعقله .



٧

كانت حياةُ حيٍّ تمضي سعيدةً هادئةً ، لا يغادرُ كُوخَه إلا مرةً في الأسبوعِ للبحثِ عن طعامٍ يختزنه في مخزنِهِ الصغير ، بينما يَقْضي معظمَ وقتِهِ في العبادةِ والتأمُّلِ ، حين التقَى على الجزيرةِ بإنسانٍ آخر :

كانَ عمره عندئذٍ خمسينَ سنةً .

ولذلك الإنسان قصةٌ ، فقد عاشَ على إحدى الجُزُرِ القريبة المأهولةِ بالبشرِ صَديقانِ ، أَحَدهما اسمه سلامان ، والآخرُ يُدْعَى أَبْسال .

وكانت هذه الجزيرةُ تَدِين بأحدِ الأديان السماويّة ، وكان هذان الصديقان رجلَيْنِ صالحَيْنِ عَابِدَيْن لله كما أوجبتْ ذلك الشَّرائعُ والنُّبوّات . وكان أَبْسال أكثرهما إقبالاً على العبادة .

وقد سمعَ أبسالُ عن الجزيرةِ التي عليها حيٌّ ، وإنْ لم يعلم بوجودِ حيٍّ عليها ، أو أيِّ بشريٍّ آخرَ ، فقد كان المعلومُ أنها مهجورةٌ .

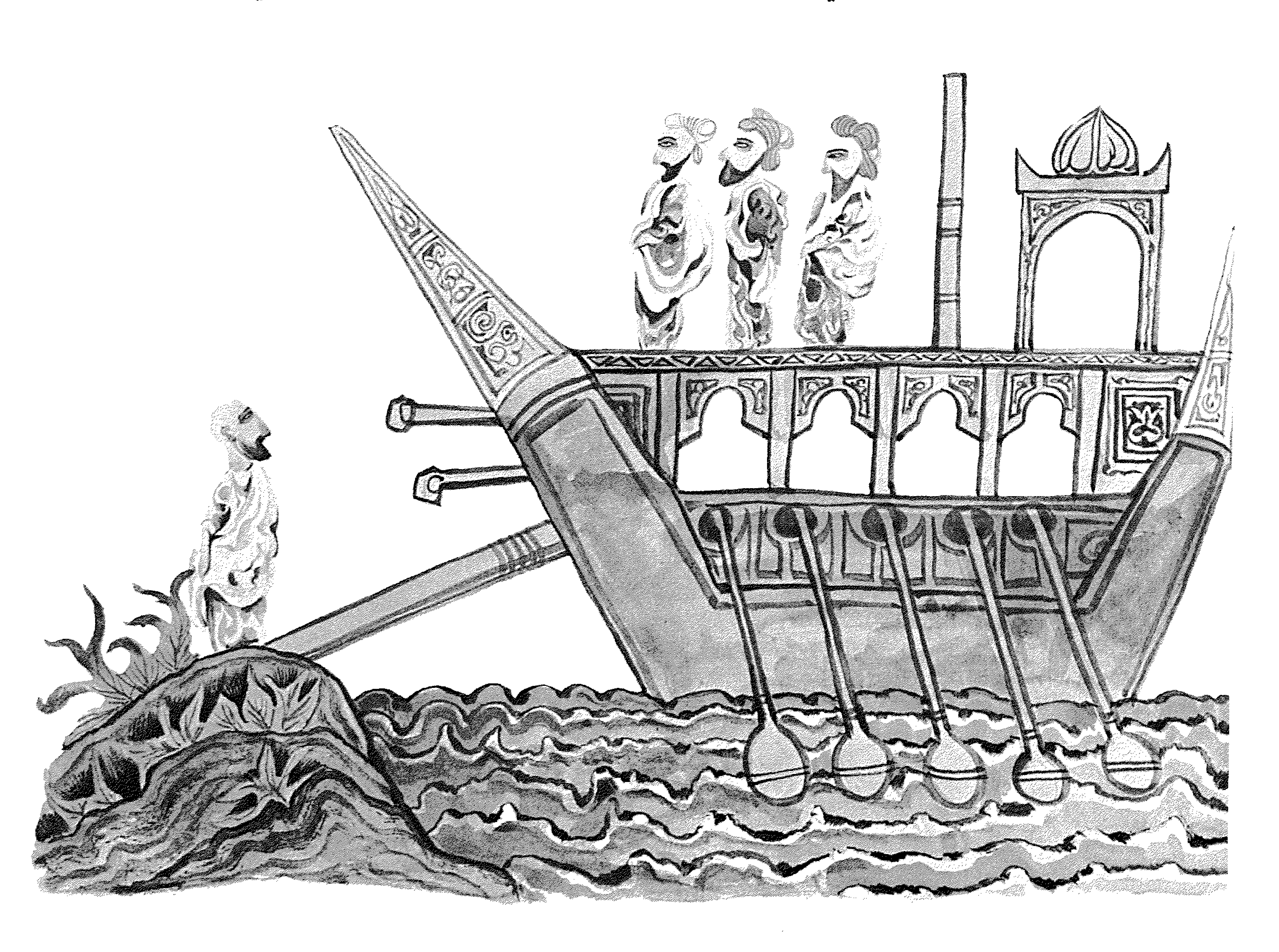
سمع أنّها جزيرةٌ خاليةٌ ، خصبةُ الأرضِ طيّبةُ الهواءِ خاليةٌ من الوحوشِ المفترسةِ ، فاستقرَّ

رأيهُ أن يقضيَ فيها بقيّةَ عُمْره ، وحيداً فريداً ، لكي يَعْبُدَ اللهَ .

وجمعَ أبسالُ ما اقتصدَ من مالٍ ، واستأجرَ مركباً حَملَتْهُ إلى الجزيرةِ ، ثم عادت بعد أن ألقتْ به على ساحلها ، وعاش على الجزيرةِ زمناً يأكلُ من ثَمَراتِها حتّى يسدَّ جُوعَه ، ثمّ ينصرف إلى العبادةِ والصلاة .

وذاتَ يومٍ وقعَ بَصَرُ حيّ بن يقظان على أبسالَ ، ولمحَ أبسالُ حيَّ بن يقظان .

أما أبسالُ فقد ظَنَّ أن حيَّ بن يقظان مِثْلَه ... رجلٌ اعتزلَ الحياةَ لكي يَعْبُدَ اللهَ .



وأما حيٌّ ، فقد زادتْ دَهْشَتُهُ حينَ رأى أَبْسال ... وأخذ يدورُ حوْلَهُ ، فوجدهُ يصلّي ويعبدُ اللهَ بكلامٍ لا يعرفه .

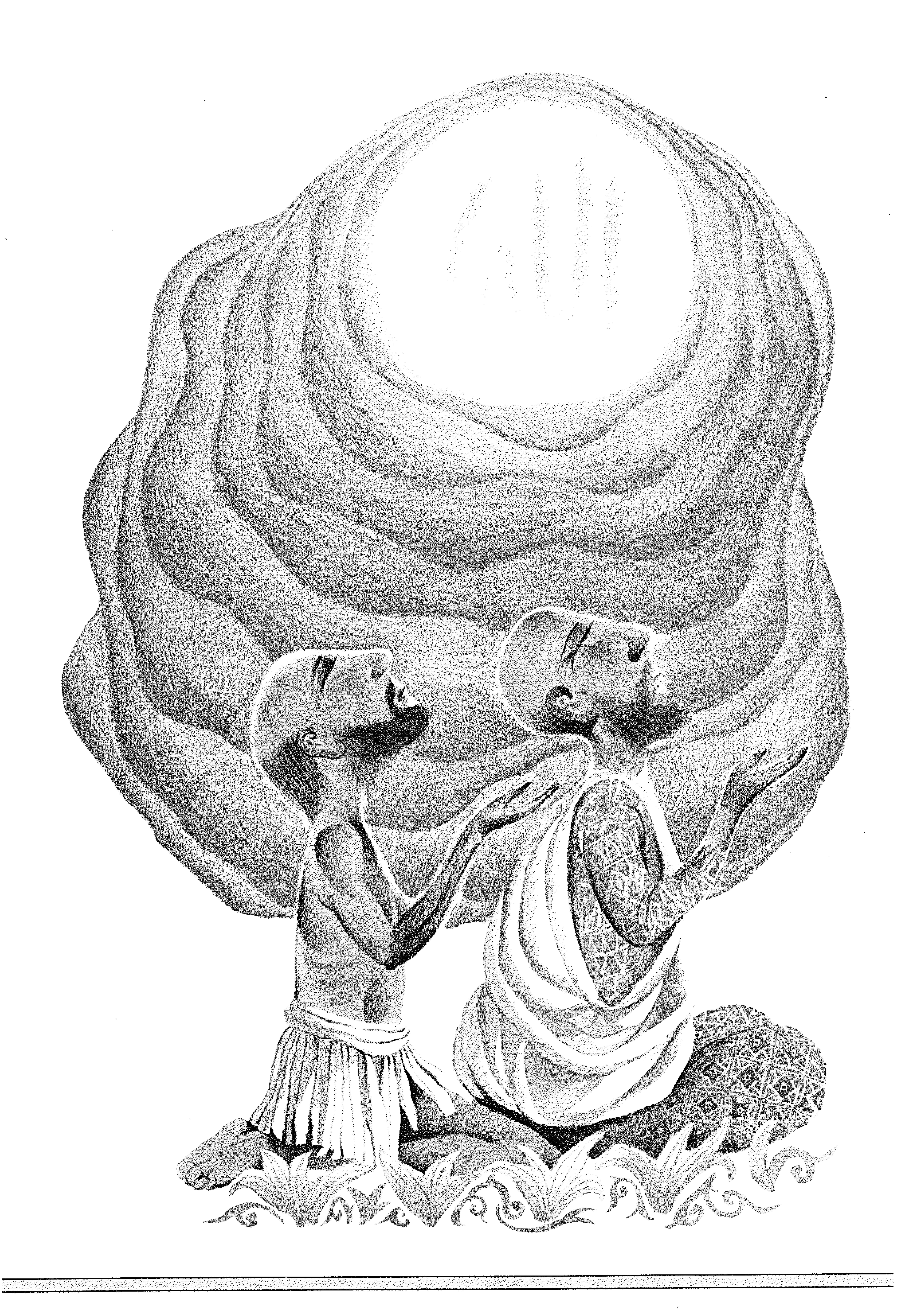
وحاولَ أَبْسال أن يحدّث «حيّ» بكلِّ لغةٍ يعرفُها ، ولكنْ دونَ جَدْوَى ، فظلاّ يعيشانِ على الجزيرةِ زَمَناً حتّى استطاعَ أبسالُ أن يعلِّمَ «حيّ» بعضاً من لغته ، إذ كان يشيرُ إلى الأشياءِ ثم ينطقُ بأسمائها ، فينطقُها حيٌّ بعده :

هذه شجرةٌ ، وهذا طائرٌ ، وذلك نُهَيْرٌ أو غَديرٌ ، وتلك سحابةٌ ... حتى عرفَ حيٌّ أسماءَ الأشياءِ جَميعها .. ثم بدأ أبسالُ بعد ذلك يحدِّثه فيفهمَ منه ما يقولُ ، ويلتقطُ كلماتٍ جديدةٍ كلَّ يومٍ .

وعرف أبسالُ من حيٍّ قصّتَه ، وعلَّم أبسالُ «حيَّ» الفرائضَ كما وردت في الشرائعِ السماوية ، فكانا يصلّيان معاً ويصومان معاً .

وازدادتْ محبّةُ أبسالَ لحيِّ بن يقظانِ حينَ وَجَدَهُ قد عرفَ بعقله وَحْدَهُ أنّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو خالقُ كلّ شيءٍ ، وازدادتْ محبّةُ حيٍّ لأبسالَ حين تَعَلَّمَ منه اللغةَ وفرائضَ الدين ....

واتفقَ الصديقانِ على أن يذهبَ حيٌّ مع أبسال إلى جزيرته الأولى ليلتقيا بالناسِ ، وليشهدَ الناسُ جميعاً كيف أنّ حيَّ بن يقظان قَدِ اهتدى بِفِطْرَتِهِ إلى أسرارِ الكونِ .

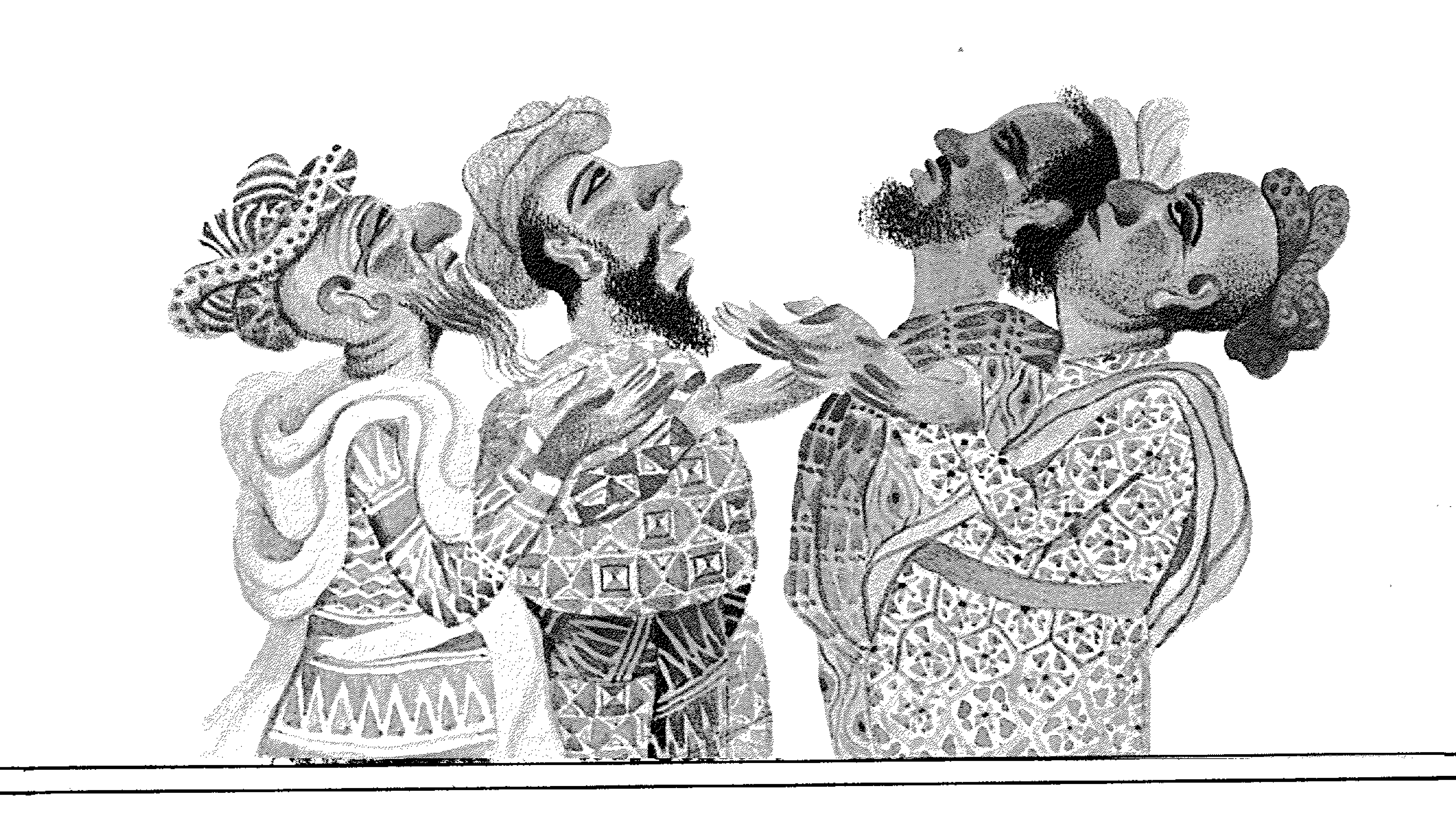



وعاد الصديقانِ إلى جزيرةِ أبسالَ ، حيث التقيا بسلامان ، وسمعَ الناسُ قصةَ حيٍّ بن يقظان ... فلم يملكوا إلا أن يقولوا :

سبحانَ الله ... جلَّت قُدْرَتُهُ ...

فإنَّ أعظمَ ما وَهَبَنَا اللهُ هو العقلُ ...





HAI IBN YAKZAN

BY: IBN TOFAIL

